الفصل الأول:

بداية التيه

يا إلهي... كم أكره هذه الحياة!

تمتمت خلود في سرّها مرات ومرات، كأن العبارة لا تخرج من فمها بقدر ما تنفجر من صدرها. مدت يدها بتثاقل، كمن يقتلع نفسه اقتلاعًا من مكانه، لتقف أمام نافذة قسم الحاسوب التابع لعمادة القبول والتسجيل. كانت النافذة ضيقة، محاطة بالأسلاك المعدنية الصدئة، لا تسمح إلا بفتحة صغيرة تمرر من خلالها أوراقًا تحدّد مصير أعوام كاملة من الدراسة.

كان صباحًا مختلفًا، رغم أنه يشبه آلاف الصباحات الجامعية التي اعتادتها. إلا أن قلبها كان يضجّ بشيء من القلق؛ فهذا اليوم يعني أن بوسعها أن ترى أمامها خلاصة أربع سنوات كاملة بكلية الصحافة والإعلام. عامها الرابع... سنتها الأخيرة التي حلمت أن تكون بوابة الخلاص، فإذا بها تُشعرها وكأنها على حافة هاوية.

وبينما كانت تنتظر دورها، التقطت عيناها مشهدًا مألوفًا أمام البوابة؛ رجل خمسيني ملامحه مبعثرة، يرتدي ثوبًا قديماً، ويمشي بخطوات مترددة كمن يبحث عن شيء ضائع. كان معروفًا بين الطلاب باسم **أبولو**؛ رجل بسيط مختل العقل قليلًا، لكنه لا يؤذي أحدًا. اعتادت خلود أن تراه كل صباح، يبتسم لها بعينيه الحزينتين، وأحيانًا تمد له يدها بقطعة خبز أو بضع شواكل، فيردّ عليها بدعاء صادق كأب يبارك ابنته.

اليوم لم يكن مختلفًا؛ لمحها من بعيد ولوّح لها بكفه، فاكتفت بابتسامة صغيرة قبل أن تعود بعينيها إلى النافذة الضيقة، حيث كان قدرها الحقيقي يُسحب لها مطبوعًا على ورقة.

تسلّمت الورقة أخيرًا، لم تكن سوى جدول جاف مليء بالأرقام والرموز، لكنها في عين خلود بدت أثقل من جبال. مرّت بعينيها سريعًا على السطور الأولى، وما إن وقعت على الدرجات حتى اتسعت حدقتاها بدهشة، كأنها تلقت صفعة غير متوقعة. للحظة واحدة راودتها رغبة جارفة أن تمزق الورقة إلى أشلاء أو أن ترميها بعيدًا عن ناظريها، لكن الزحام حولها من الطلبة كبحها، فاكتفت بأن طوتها بارتباك، ودسّتها في جيبها كما يُخفى سرّ مخزٍ.

العلامات كانت سيئة، بل أسوأ مما توقعت؛ صفوف طويلة من الدرجات المنخفضة التي توحي بكارثة وشيكة. لم يكن والدها ليتسامح أبدًا مع مثل هذه النتيجة، ولم تكن هي ذاتها لتسامح نفسها عادة. ومع ذلك، الغريب أنها هذه المرة لم تبكِ ولم تشعر حتى بمرارة الانكسار. كان في داخلها شعور غريب، إحساس باهت يشبه الخدر، كأن الألم انكسر هو الآخر وفقد سلطته عليها.

كانت الصدمة قصيرة العمر. فما إن لمحَت وجوه صديقاتها يلوّحن لها من بعيد حتى انفرجت ملامحها قليلًا، وانطلقت لتبادلهم الحديث والضحكات كما لو أن شيئًا لم يحدث. بدا الأمر وكأن خلود اعتادت أن تضع بين نفسها وبين العالم ستارًا خفيًا؛ لحظة ألم داخلية تنطفئ فجأة أمام دفء الآخرين، كأنها دربت قلبها على النسيان السريع.

«يا إلهي... كم أكره هذه الحياة!

ورقة واحدة... قادرة أن تحوّل أحلام أربعة أعوام إلى هاوية».

خلود، ابنة الواحد والعشرين، لم تكن لافتة للنظر فقط بملامحها، بل بالحزن الذي يسكن تلك الملامح. قامتُها متوسطة، جسدها نحيل، يكسوه ثوب أسود فضفاض ينسدل حتى الكاحلين. يعلو رأسها منديل رمادي محكم، يغطي شعرها بالكامل ويمنحها وقارًا أكبر من عمرها. وجهها مستدير، تكسوه بشرة حنطية فاتحة، تتوسطه عينان واسعتان بلمعة فاحمة تزيدها جمالًا أخّاذًا. لكن ذلك الجمال كان يبهت غالبًا أمام عبوسها الصامت، أو شرودها الطويل في الفراغ، وكأنها تحمل على عاتقها أثقالًا أكبر من سنواتها القليلة.

كانت خلود تُرى كثيرًا وهي مطرقة الرأس، تختفي خلف الصمت أو الوجوم، حتى إذا رحلت عن المكان بقي أثرها خلفها، مثل ظل ثقيل لا يزول بسرعة.

لم تكن الدرجات على مستوى ذكائها ولا جهدها، لكنها رفضت أن تمنحها حق الانتصار على مزاجها. اكتفت بأن تضحك قليلًا مع صديقاتها المقربات، وبادلتهن المزاح كما لو أن شيئًا لم يُكتب قبل دقائق على ورقة رسمية قد تغيّر مسار حياتها. كانت خلود تملك تلك القدرة الغريبة على كتم الألم وإخفائه في صدرها، ثم المضي قدمًا وكأنها تخلت عنه نهائيًا، بينما هو يتربص بها في الداخل.

خارج أسوار الجامعة، كانت تنتظرها حياة عائلية مزدحمة. خلود هي الكبرى بين شقيقاتها الأربع:

كوثر، ابنة السابعة عشرة، طالبة في المرحلة الثانوية، تشبه خلود في الملامح وتختلف عنها في الطباع.

تهاني، تصغر كوثر بعام واحد، رقيقة الحضور لكنها أكثر تمردًا مما تبدو.

منال، في الثالثة عشرة، أكثرهن براءة وحدّة في الوقت ذاته.

كبرن معًا كتسلسل من الظلال المتلاحقة، حتى جاء الحمل المتأخر الذي قلب توازن البيت :**محمد،** الأخ الوحيد، الذي وُلد بعد سنوات طويلة من إنجاب البنات. واليوم، وقد بلغ السابعة من عمره، صار الطفل المدلل للأسرة، يدرس في مدرسة خاصة ويحظى بما لم تحظ به أخواته مجتمعات.

فيما كان والدها **الرائد عبد الفتّاح أيوب** يعمل ضابطاً في **شرطة محافظة الخليل (مركز سعير)** يحمل على كتفيه صرامة الوظيفة وثقلها، فيما كانت والدتها، **سميرة،** ربّة منزل أنهكتها الحياة حتى وُلد آخر العنقود محمد. طوال سنوات قبل ميلاده، لم تُعرف سميرة في محيط العائلة الممتدة إلا بلقب جارح" :*أم البنات* ."كلمة ثقيلة تحولت إلى سيف مسلط على عنقها، جعلت حياتها جحيمًا، وفتحت عليها أبواب تهديد متكرر بالطلاق أو الزواج عليها. كانت الجدة – أم عبد الفتّاح – هي رأس الحربة في هذا الضغط، تسكن غير بعيد في بيت العائلة الكبير، وتُشعل نار الشكوى واللوم بلا هوادة.

لكن عبد الفتاح، رغم كل ما وُجّه إليه من إملاءات وإغراءات، تمسّك بزوجته.